وقفات مع الاستبداد العلمي الإلحادي

حلمي صابر – جمادى الأولى ١٤٤٦هـ

(١)

قبل كل شيء: من أعطى الحق للفيزيائي وللفلكي والكيميائي والأحيائي والسلوكي والفيلسوف والاقتصادي والسياسي وغيرهم في تقرير قضية ليست من قضايا العلم، إنما هي قضية فكرية إيمانية تتعلق بالقبول والتصديق لا بالصواب والخطأ.

حدود العلم الطبيعي والإنساني إنما في المعمل والمجتمع البشري. هذا الذي في مقدوره فقط. ليس في مقدور البشر تقرير الدين الصحيح إلا بالبراهين. فالدين الصحيح ليس اختراعاً بشرياً إنما هو وحي منزل من ربنا برسول أو نبيٍ مرسل. فرفض العالم الطبيعي أو الإنساني للوحي لا يغير من مصداقية الوحي شيئا. إنه لمن العجيب كيف انتزع العالم التجريبي حقا ليس له ؟!. لا يملك العالم الطبيعي في كلية أو جامعة أية ذرة من حق في تقرير الدين الحق. لأنه ليس في مقدوره ولا يستطيعه. إذا العالم التجريبي يعظم حواسه وعقله ، فكيف تخطاهما ! ؛ لأن العقل والحواس بمفردهما بحاجة إلى مصدر آخر وهو الوحي.

(٢)

نحن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل من نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام. لا يحمل النبي جنسية لنتعصب له. فإيماننا بموسى وعيسى كإيماننا بمحمد عليهم الصلاة والسلام. ليس القرآن ومحمد للعرب فقط. كما أن التوراة والإنجيل في زمانهما ليسا خاصين بالإسرائيليين فقط. بل كان على المصريين في زمن موسى عليه الصلاة والسلام أن يؤمنوا به. أليس في العرب يهودا ونصارى. أكرِّر: ليس محمد عليه الصلاة والسلام خاصا بالعرب، وليس القرآن الكريم خاصا بالعرب بل هما للناس كافة. فحق الأسيوي والأوروبي والأفريقي والأمريكي في الأميركتين سواء كحق أية شخص. كلنا سواء أمام الوحي في قبوله ورفضه.

(٣)

والرفض وعدم قبول رسالة النبي رفض شخصي، وليس رفضاً علمياً ولا علاقة له بالعلم الطبيعي.
هل يمكن لفلكي أن يُقرر حقيقة الملَك جبريل عليه السلام وصفته ! هذا لا يستطعه ولن. هل بمقدور الفلكي أن يحدد موضع الجنة والنار المخلوقتين.
ليس الإلحاد نتيجة علمية؛ هذا محض كذب وافتراء واستبداد وتسلط علمي. الدين الحق ليس اختراعا بشريا. وإن كان بين البشر مخترعات دينية خرافية صنعها البشر.

(٤)

إنكار العالم الطبيعي للوحي كمصدر، لا يجعل الوحي باطلا؛ لأن رفض العالم لا يغير من حقيقة ومصداقية الدين الحق شيئا. فقبوله ورفضه على نفسه هو. لا يحتاج الدين الحق ليصير مقبولا أن يقبله العالم الطبيعي أو غيره من البشر. مثلا، لا نحتاج إلى العلم الطبيعي لنؤمن بوجود الروح في الإنسان. لا نحتاج إلى العلم الطبيعي لنقرر حقيقة رسالة موسى عليه الصلاة والسلام. لا نحتاج إلى العلم الطبيعي لنصدق أن عصا موسى صارت حية تسعى. ولا نحتاج إلى العلم الطبيعي لنصدق أن عيسى عليه الصلاة والسلام أحيا الموتى بإذن الله وشفى الأبكم والأبرص. ولا نحتاج إلى العلم الطبيعي لنصدق أن محمدا عليه الصلاة والسلام عُرِج به إلى السماء السابعة جسدا وروحا. إذا شاءه الله تبارك وتعالى وأراد وقوعه، وقع. فلا يتوقف العروج على موافقتنا أو قبولنا. ليس الكون والخلق، مخلوق على قدر عقولنا وتصوراتنا. ألا ترى لكل عصر عقله وتصوراته. والتالي يحطُ من شأن السابق. وربما جاء بعدنا من نقض علومنا ومعارفنا وسَخِر من عقولنا وتصوراتنا العلمية.

(٥)

العلم الطبيعي مجهود بشري يصيب ويُخطئ. نحن نرى العلم البشري في الطبيعيات والإنسانيات يتغير عبر التاريخ. وربما ظنَّ بعض العلماء بأنهم وصلوا إلى نهاية العلم والمعرفة. ولا يقول بهذا عالم يحترم نفسه. فكلما ازداد المرء علما، تحقق أن جهله أكثر من علمه. وهو متخصص في جزئية صغيرة من العلم. فكيف لو قارن علمه بجميع العلوم الأخرى. قصدتُ أن يضيفَ في مقارنته علم البعوضة وعلم الذبابة والنحلة عن الكون والشمس والضوء والكون. ويضيف أيضا علم الطيور والأسماك والحشرات والبكتيريا والفطريات والشجر وورق الشجر والبحار والشواطئ والأمواج مما يراه ومما لا يراه. أقول يضيف علومها هي ، لا يضيف علمه هو بها.

ولو جمعنا معرفة البشر جميعهم لوجدنا مقداره ضئيلا جدا بالنسبة إلى العلم الذي نجهله. فالمجهود البشري لا يمكن أن يقرر صدق الوحي ؛ لأن الوحي غيب. ولا سبيل إلى معرفته إلا بالوحي والأنبياء والرسل.

وجاءت الأنبياء الرسل بالبراهين على رسالتها. فليس كل من ادعى النبوة نبي. كن على حذر عظيم. فدعوى القداسة بين البشر منتشرة في المعتقدات والأديان. حتى نهر الجانجا في الهند الملوث بالموتي زُعِم بقداسته. وزعم آخرون بأن للميتين وقبورهم قداسة؛ فتراهم يتمسحون بها متبركين. مع أن مفهوم البركة مفهوم غيبي. حتى المشعوذ في غابات أفريقيا وغابات الأمازون زعم لنفسه القداسة.

(٦)

إذا اتفق مجموعة من علماء الطبيعة في أي كلية أو جامعة في العالم، أقول: إذا اتفقوا بأن الدين حق أو باطل. لا اعتبار لاتفاقهم أو تقريرهم لأنه ليس بمقدورهم، وليس من اختصاصهم البشري. ليس الدينُ قضيةً علمية قابلة للتجربة. الإسلام وحي، ورفضه للوحي كمصدر من مصادر المعرفة هذه مشكلته وليس مشكلة الوحي. قبوله أو رفضه لا يُغير في قيمة هذا الوحي العظيم شيئاً أبدًا ألبتة.

طلب ربنا تبارك وتعالى في القرآن الكريم أن يفحصوا برهان القرآن الكريم هل هو تأليف بشري . برهن موسى عليه الصلاة والسلام على نبوته ورسالته بعصاه التي صارت حية تسعى ، وبالعصا التي فلقت البحر وهي عصا هشَّ بها على غنمه. فما الذي جعل هذه العصا مختلفة عن غيرها. والأمر نفسه مع عيسى عليه الصلاة والسلام في إثبات نبوته ورسالته بإحياء الموتى وشفاء الأكمه والأبرص .

وبرهان القرآن برهان دائم. فهل القرآن هو من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم ؟. كأنك حينئذ تقول بأن عصا موسى عليه الصلاة والسلام هو الذي صنعها بقدراته، وأن عيسى عليه الصلاة والسلام هو بقدراته البشرية أحيا الموتى وشفا الأكمه والأبرص. فكما أنه ليس بمقدورهم، فكذلك ليس بمقدور محمد عليه الصلاة السلام أن يجيء بهذا القرآن. لا يستطيع بشر أن يؤلف هذا القرآن. فإذا لا يمكن لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يأتيَ بهذا الكتاب، فمن جاء به؟ ومن جعل عصا موسى حية تسعى، ومن أذِنَ لعيسى أن يحيَ ويشفيَ .

(٧)

إنَّ اختيار المتخصص في الطبيعيات والإنسانيات ومن شابههم الإلحاد خيارا عقديا إيمانيا. مثله كمثل اختيار صائد السمك بمهنته الإلحاد مستدلا بالسمك والشبك والبحر. ومثله زارع الحب والشعير الذي استدل بمهنته واتخذها دليلا على الإلحاد سواء بسواء.

يزعم المتخصص في الفيزياء والكيماء والفلك وغيرها من العلوم البشرية بأن له الحق بمفرده عن سائر الناس في أن يقرر الصواب والخطأ في الاعتقاد. ويجبرنا على أن نصدقه بأن أجدادنا قرود. وأنَّ الكون انفجر بفوضى التي صنعت كل هذه الأنظمة المنتظمة. الغريب في الأمر، أن هذه الظنون فرضيات عقلية قابلة للرفض والقبول. مهنة العالم في جامعة لا يعني أن له الحق وحده فقط دون سائر البشر. فإذا كان الإلحاد مرتبطا بمهنة، فهو حينئذ مرتبط بالمهن الأخرى أيضا كحارس البناية والشرطي وعامل النظافة والمهندس والطبيب والخطاط وعامل البلدية سواء بسواء.

ثمة متخصصون آخرون يقررون رفضهم لهاتين الفرضيتين – القردية والانفجارية - بالأدلة العلمية الطبيعية. فلم لا يقبل إلا قول المتسلطين من الملاحدة. ما هذا الاستبداد العلمي ؟!.

المفترض في العلماء أن تكون مرونتهم في قبول الاختلاف العلمي أكثر من غيرهم؛ لأنه لا يمكن احتكار الحقيقة العلمية المشاعة للبشرية كلها.
وأمر آخر مهم وهو التفريق بين الملاحظة العلمية والتفسير العلمي. فليس بالضرورة أن يكون التفسير العلمي صوابا للظاهرة العلمية، فهما شيئان مختلفان. فما تراه من علاقة بين المتغيرات والمؤثرات، قد لا يكون تفسير هذه العلاقة صحيحا.

(٨)
اتفاق بعض المتخصصين في الجامعات على الإلحاد بأنه حقيقة علمية. نقول لهم ليس هذا مجالكم وسواء اتفقتم أم اعترضتم لا يُغير من حقيقة الدين والإيمان الحق شيئا.
فلو جاء عالم بوذي أو مسلم أو نصراني أو يهودي، في المعمل بكالسيوم وصوديوم هل يؤثر اعتقاد الباحث الديني في هذا ؟ بالتأكيد لا يؤثر. ولا يعني هذا كونه لا يؤثر، إذن الدين ليس له علاقة بالعلم. مجال العلم الطبيعي والإنساني خاضع للتجربة والإثبات بالطرق العلمية التجريبية. فالذي يؤثر في كلوريد الصوديوم عبث الباحث في شروط التجربة. وعليه أن ينضبط بشروط التجربة العلمية ليحصل على نفس النتيجة وهي كلوريد الصوديوم. ومجال الدين الحياة كلها. إذا خرج العالم من المعمل بل وفي المعمل عليه أن يتصرف وفق أحكام الشريعة.

الإلحاد قضية شخصية فردية للملحد نفسه. فلا نجعل من شخصيته الفردية أو رأيه الشخصي الفردي قضية عالمية. يُشبه هذا ما ذكره أنيس منصور في كتابه (في صالون العقاد كانت لنا مجالس) في الصفحة ٤٢ بأن العقاد قال لهم " إن هؤلاء الفلاسفة الوجوديين يا مولانا، ليسوا إلا جماعة نصابين قد أصيبوا بالأرق. وبدلا من أن يبتلعوا بعض الأقراص المهدئة ، فإنهم فرضوا الأرق فلسفة على الجميع ... كل ما لديهم أوجاع خاصة ، جعلوها عامة، ومضايقات اجتماعية ، جعلوها فلسفة).

وبنفس مبدأ العقاد نقول : لا نجعل تصور الملحد الشخصي المستدل بالعلم كذبا وزورا لبرهنة إلحاده ، لا نجعله قضية علمية عالمية على صدق الإلحاد العلمي لحفنة من المتخصصين.

القضية الأساسية : من أعطى الصلاحية والحق في أن علماء الفلك أو الطبيعة أو السلوك السياسي أو السلوك الاقتصادي أو غيرهم في العلوم الإنسانية، من أعطى لهؤلاء الحق أن يُقرروا هذه الحقيقة العظيمة بأنه ليس ثمة رب، وليس ثمة دين؟! من خوَّلهم هذا؟ بأي حق هم يتكلمون بهذا أصلاً ؟! إنما هو زعْمهم ونحن وافقناهم عليه ؟ وهذا غير صحيح، فهو يدّعي دعوى هي ليست له أصلاً.

كونه فلكياً فيزيائيا، رياضياً، أحيائياً، كيميائياً، سياسيا، اقتصاديا، شيوعيا، اشتراكيا، رأسماليا ليس له الحق لأن يُقرر هذه النتيجة، أنا أتعجب من هذا كثيرا !. ليس في مقدوره أن يُقرر هذه النتيجة، هو لا يستطيع أن يُعد دراسة عن جبريل عليه السلام، لا يستطيع أن يُعد دراسة عن الجن أو عن المغيبات أو إلى ما شابه ذلك، هو أقصى ما يستطيع عمله دراسة عنصر كيميائي أو فيزيائي أو ذرات كهربائية أو نواة في مجاله المعملي فقط، هذا هو مستواه البشري الذي لا يستطيع أن يتعداه ويتجاوزه. كونه يرفض الوحي علميا. هذا كذب على العلم. فليس مجال العلم التجريبي الوحي والغيب. وكونه لا يستطيع دراستهما، ينكرهما ؟!. أمر غريب عجيب جدا.

ليس إنكار الدين الحق قضية علمية أبداً، هذا موضوع مختلف تماماً. والعالم ليس مؤهل له، رفضه وقبوله مشكلته الشخصية، لكن مشكلته الشخصية ليست مشكلة عالمية، ليس إنكاره تقريراً علمياً. كونه يؤسس فهم الأشياء بإرجاعها مثلاً إلى فرضية دارون أو إرجاعها إلى نظرية الانفجار الكوني فهذه فرضيات قابلة للرفض والقبول. ما الذي جعل أفكاره الافتراضية براهين حقيقية !.

نحن نؤمن بالوحي وهو مصدر الحق وهذا هو القرآن تقبله أو ترفضه هذا شأنك ومشكلتك وليست مشكلتنا. ونقبل التفسيرات الصحيحة للتجارب العلمية التجريبية. ولا تعارض بين التجريب والوحي.

(٩)

هبْ أنَّ مجموعة من التجار اتفقوا على الإلحاد، هل يعني إن الإلحاد صار إلحادا تجاريا، وبنفس المبدأ اتفق مجموعة من المتخصصين في الجامعات على الإلحاد هل يصير إلحادهم علميا ؟!.

ولو اتفق الاقتصاديون؟ أو الرسامون؟ أو غيرهم في المهن الحِرف الأخرى. إذا اتفق نجارون على الإلحاد هل يصير الإلحاد بهذا إلحادا خشبيا أو إلحادا حديديا بإلحاد الحدادين ؟!. الأجدر بهذا النوع من الإلحاد أن يسموه: الإلحاد المهني !.

لا يختلف المتخصص العالم في جامعة هارفرد أو لندن أو برلين أو دمشق أو الكويت أو بغداد وغيرها عن صياد السمك عند الإيمان وقبول الوحي. قبول الوحي وتصديقه لا يرتبط بعلم الشخص وقدراته العقلية فقط، بل يرتبط بصفاته الشخصية. فليس معرفة الحق كافية لقبوله.

فلا فرق بين صائد السمك وزارع الحب وعامل النظافة وحارس الأمن بالكيميائي والفلكي بالجامعة. كلهم سواء أمام الوحي.

(١٠)

قبول الدين الحق مرتبط بقبول خبر الحق من الأنبياء والرسل الذين جاءوا بالدلائل والبراهين. كانت مع موسى عليه السلام العصا التي أبطلت سِحْر سَحَرَة فرعون الذي لم يؤمن مع توافر كل الدلائل والبراهين.
والأمر نفسه مع عيسى عليه السلام عنده من المعجزات والدلائل الواضحة، ومع هذا ناصبوه العداء. وعلمت قريش صدق النبي عليه الصلاة والسلام ونبوته ومع هذا رفض بعضهم دعوته قصدا وكبرا. فليس معرفة الحق كافية لقبوله، بل يجب معه الاستسلام للحق.

(١١)

يتعرض في بعض الجامعات الدكاترة وعلماء الطبيعة وغيرهم للضغوط بأن يؤمن بنظرية دارون وأن يؤمن بالإلحاد. فإذا رفض نظرية دارون أو تبنى نظرية التصميم الذكي، قد تفصله الكلية من عمله بأساليب مختلفة مع تشويه سمعته العلمية. مع أن الاختلاف هنا ليس علميا. إنما اختلاف شخصي.
وهذا الاستبداد العلمي أمر حقيقي وقع ويقع في الكليات والجامعات العلمية. فأين دعوى الموضوعية؟ ودعوى العلم والدليل العلمي الذي انتهى الإنكار فيه إلى صفات شخصية لا علمية. ألا يشبه هذا الاستبداد العلمي الداروني الفوضوي بالاستبداد السياسي !.

حقيقة، أنا أعجبُ من هذا: في المكان الذي يفترضُ فيه أن يجد المرء فيه الحق والموضوعية والقبول العلمي، صار مكانا للطغيان العلمي والفرعونية العلمية.؟ وهذا مثله كمثل الأمي الجاهل الذي لا يقرأ ولا يكتب وجلس بين العلماء وارتدى روب عالم المعمل أو المختبر. فهل روبه العلمي هذا يصيره عالما ؟!. فهل إذا جحد العالم الطبيعي والإنساني الوحي صار إلحاده علميا موثوقا مقبولا ؟!.

(١٢)

وأخيرا، خلاصة الكلام بأننا لا نحتاج إلى أن نبرهن على صدق الوحي بالجدل العلمي وفلسفة العلم. بل نقول: بأنَّ هذا القرآن هو البرهان على الوحي. وقبوله أو جحده لا يغير من حقيقة بأنه كلام ربنا الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم. وليس إنكار العالم المتخصص في الجامعة يجعل إلحاده إلحادا علميا لأن مهنته علمية. فإنكاره كإنكار النجار والحداد والزراع سواء بسواء. بل ربما كان عتابنا على أستاذ الجامعة أشد؛ لأنه درس ورأى صفات الجماد والكائن الحي على اليابسة وفي الماء وفي الجو.

ليس الوحي خاضعا للتجريب في المعمل والمختبر. وعلى من جحد القرآن الكريم أن يثبت بأن القرآن الكريم تأليفا بشريا. كمن أدرك موسى عليه الصلاة والسلام في زمنه وجحد رسالته مع وجود العصا وانفلاق البحر. وهو الجحود نفسه لمن جحد رسالة عيسى عليه الصلاة والسلام.

قبول دلائل الإلحاد العلمي هو اعتراف ضمني بسلامة جدالهم وأحقيته. وهذا غير صحيح. فالقرآن الكريم مليء بالأدلة والبراهين على أنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام ربنا خالق البشر. بل نحن نطالبهم بأدلتهم التي جعلتهم يرفضون القرآن الكريم بزعمهم بأنه من كلام البشر.

أقترحُ إن كنت يهوديا أن تقرأ قصة موسى عليه الصلاة والسلام في سورتي القصص وطه. وإن كنت نصرانيا بأن تقرأ سورة آل عمران وسورة مريم وأواخر سورة المائدة. وإن كنت غيرهما فتقرأ سورة الأنبياء لترى قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع الأصنام.

وفَّق الله الجميع إلى قبول الحق والاستسلام له.

٩ جمادى الأولى ١٤٤٦هـ
١١ نوفمبر ٢٠٢٤م

انتهى